الخطاب المقدماتي في النص النثري
الرحلة العياشية لأبي سالم العياشي أنموذجا

الدكتور محمد التويرة
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين مراكش اسفي
المغرب

الحج من فرائض الإسلام الخمس، فيه يجتمع المسلمون عربا وعجما يرجون رحمة الله ومغفرته، طامعين في عطائه وجزائه، فالحمد لله الذي يسر للحاج سبيله، وسهل عليه مشاقه، وأزال من طريقه صعابه، حمدا تتم به النعم ويرد به النقم، والصلاة والسلام على سيد الورى وخير البشر المصطفى الذي دل على الحج وعبَر، من تشد لمسجده الرحال، وتصعد الجبال سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

امتثالا للشريعة الربانية واتباعا للسنة المحمدية، لا تخل البقاع المشرفة عاما من الحجاج يأتونها ركبانا ورجالا ومن الفجاج، وعلى ذلك سار المغاربة من أقصى الغرب ليحجوا بيت الله الحرام، تثنيهم الصعاب، ولا ترهبهم الفيافي، فساروا برا وبحرا جماعات وفرادا.

احتفل الحجاج قديما بتدوين رحلاتهم لزيارة بلاد الحجاز، فتحتل الرحلة الحجازية مكانة متميزة بين أنواع الرحلات السياحية والعلمية والعلاجية والاضطرارية وغيرها، فرحلة الحج رحلة دينية مفعمة بالمشاعر والأحاسيس، تتراوح بين الرغبة والدهشة، الحنين والحب، فالحجاج يستقبلون بالحفاوة والاستقبال الكبير، بعد أن يودعوا بالدموع والدعاء، وذلك نظرا لمكانة الحج في قلوب المسلمين، "ولما كان جانب كبير من الرحالين المغاربة نحو آفاق المشرق من الفقهاء والعلماء والقضاة والأدباء، أي أنهم مثلوا النخبة المثقفة في عصرهم، فقد كان حرصهم شديدا على تدوين وتوثيق دقائق رحلاتهم إلى المشرق ومجرياتها."[1]

يعتبر العصر الموحدي بداية الركب[2] المغربي الجماعي المتوجه للحج، يقول الأستاذ محمد المنوني "يصعد تاريخ ركب الحاج المغربي إلى أواسط العصر الموحدي، ويعود الفضل في تأسيسه للإمام الشهير أبي محمد صالح الماجري[3] المتوفي سنة 631هـ

فقد كان من أهم أركان طريقته الدعوة لحج بيت الله وزيارة قبر النبي عليه السلام، وجعل من أصحابه كجمعية تبشيرية تدعو لتلك الغاية السامية، واستمر على ذلك سائر حياته."[4]

إن تأسيس الركب المغربي يعود للشيخ محمد صالح الماجري نتيجة دعوته التي تقوم على الترغيب في زيارة المقام الكريم، وقد رافق الشيخ الماجري هذا الركب مدة حياته، واستمر الركب بعد وفاته متجها من اسفي نحو المشرق.

وقد تعدد الركب المغربي واختلف من حيث مناطق الانطلاق وطرق العبور، فأصبح لك مدينة أو دولة حاكمة ركب متوجه للحجاز، فظهر الركب الفاسي والركب المراكشي والركب السجلماسي والركب الشنقيطي، كما نجد الركب البري والركب البحري.

يرجِع محمد المنونين نشأة الركب الفاسي إلى عهد الدولة المرينية "يرجع عهد تأسيسه إلى أوائل الدولة المرينية."[5] "وكان يخرج للحجاج في السابع والعشرين أو الثامن والعشرين جمادى الثانية، يستهل عليه رجب بتازا."[6] "ويظهر في حلة بديعة وشارة حسنة وقد اهتم به السلاطين، فكانت يقدم له الهدايا والعطايا."[7]

ويرجع تأسيس الركب المراكشي إلى أيام دولة السعديين ومرجع ذلك ما ذكر الباحث محمد المنوني في كتاب ركب الحاج المغربي "كان يخرج من مراكش ويذهب فيه أهل البلدة ونواحيها، ويظهر أنه تأسس أيام السعديين"[8]

أما ركب شنقيط فقد تأسس بعد عمارة المدينة وامتداد حاضرة شنقيط.

وينقسم ركب الحج المغربي من حيث طريق السفر إلى نوعين: ركب بري يسلك طريق البر انطلاقا من المغرب مرورا بالصحراء الكبرى وصولا إلى مصر ثم يقطع البحر الأحمر وصولا إلى الحجاز. وكل الركاب سالفة الذكر هي ركاب برية تسلك طريق البر. أما الركب البحري –كما يدل عليه اسمه– فإنه يسلك طريق البحر من سواحل تطوان ومرتيل مرورا بسواحل الجزائر وليبيا وصولا إلى مصر ثم الحجاز، وقد هيمن فيما بعد على سائر الركاب ونسخها "وهو الذي نسخ سائر الركاب الأخرى وحل محلها وصار مع الزمن هو ركب المغرب الرسمي."[9]

ويعتبر الركب السجلماسي من أشهر وأقدم ركاب الحج المغربي، يضم أهل تافيلالت، ويخرج من سجلماسة "كان يخرج من سجلماسة ويذهب فيه أهل تافيلالت وهو ركب قديم .. والطريق التي كان يسلكها مبينة في غير ما رحلة منها الرحلة العياشية."[10]

ولقد أخرت الحديث عن هذا الركب لأنه الركب الذي خرج فيه صاحب الرحلة العياشية[11] أبو سالم العياشي يقول: "ثم سافرنا من سجلماسة يوم السبت العاشر من ربيع الثاني."[12]

تعد رحلة أبي سالم العياشي من الرحلات ذائعة الصيت في المغرب والمشرق، وقد طبعت طبعة حجرية، وطبعات منقحة. والنسخة التي بين أيدينا من مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر تحقيق الأستاذ محمد حجي سنة 1396هـ، وقدم لهذه النسخة بنص يعرف بصاحب الرحلة وأساتذته ومنهم (الإمام الأبار والشيخ ميارة وأبو زيد القاضي وأبو عبد الله الناصري الدرعي) ويذكر نص التقديم أن العياشي حج مرارا وجاور بالقدس والخليل والحرمين، وهو شاعر ناثر، غزير العلم، مديد المعرفة، واسمه الكامل أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى بن محمد بن يوسف العياشي المالكي الملقب بعفيف الدين "والعياشي نسبة لآل عياش قبيلة من البربر تتاخم أحواز سجلماسة، ولد سنة 1037هـ وتوفي مطعونا[13] سنة 1090هـ "[14]

تصدى لتعريف العياشي العديد من الباحثين والمصادر[15] القديمة والحديثة، بل نجد مؤلفات خاصة بالحديث عن شخصيته ومؤلفاته[16]،

ترك العياشي العديد من التآليف منها:

- منظومة البيوع
- تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية
- تأليف في معنى لو الشرطية
- الحكم بالعدل والإنصاف
- اقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر

- تحفة الأخلاء بأسانيد المشايخ الأجلاء

يعتبر ديوان الشعر الذي جمعه ابن عم العياشي وحفيده أهم ما تركه من الشعر، وفي باب النثر فتعد الرحلة أشهر إنتاجاته وتتصف بطابعها الموسوعي، فلم تهتم بوصف الجغرافيا والسكان، بل اشتملت أشعارا ومناسبات، ومراسلات.. وتسمى بالرحلة العياشية[17] أو ماء الموائد.

خطبة الكتاب

تبتدأ خطبة/مقدمة الكتاب –كما هي عادة الكُتاب– بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله الكريم، فتجد الكاتب يختار أبهى العبارات ليفتتح بها سفره، والحمدلة تقترن عادة بموضوع الكتاب، فإن كان في الفقه حُمد الله على شريعته الغراء، وإن كان في البيان شُكر على بيانه للعباد. وهكذا سار صاحب الرحلة على درب السلف، وافتتح رحلته بحمد الله على قرنه السفر الممدوح بمحمود الظفر، وبعد الحمدلة تبدأ الصلاة على الرسول الكريم فيتأنق في العبارة ويختار أفضلها فيقول "وصلاة الله المحيطة بأعلى مراتب الفضل والإحسان، المستغرقة لصلاة كل ملك وجان وإنسان، وسلامه المحلى بأبهى ملابس الأمان المتوج بأبهى حقائق الإيمان على نقطة دائرة الوجود.. "[18]

زين العياشي خطبة الرحلة بمدح الرسول وذكر بذكر صفاته الحميدة (سيدنا المحمود في حضرات العرفان – المخصوص من الله بأعلى منازل الحظوة – الممنوح في كل العوالم أجلى مراتب الهداية – نوره الذي – لا يمل في جهاد اعرابه اغترابا – لا يالوا لمرضات أحبابه اقترابا – هجر الأوطان – حارب حزب الشيطان..) ومن أهم ما ذكره العياشي في المقدمة هو الحديث عن سفر الرسول (ص) للحج ليربط بين هذا الفعل النبوي وبين رحلته الخاصة للحج، فيذكر حجة الوداع وما تضمنته خطبتها من ذكر لفضائل الحج والحث عليه، وما تدعو إليه من ترك للبدع الجاهلية وأورد العياشي نصوصا حديثية معززة لما سلف.

أورد العياشي في المقدمة أحاديث نبوية في فضائل الحج والترغيب فيه، وهي أحاديث تدفع العبد لركوب المشاق وتجشم الصعاب، ليفوز بالجزاء، فكأنما أوردها الكاتب ليذكرنا بفضائل الحج ومنافعه، وليخبرنا بأن هذه الأحاديث هي التي دفعته للحج والسفر وترك الأهل والأحباب.

تحتل الخطبة/المقدمة الصفحات 2 و 3 من الكتاب، كما أنها تحفل بالسجع مما يعطيها رونقا جماليا، وتقترب بذلك من لغة الشعر، كما تدل هذه الخطبة على نَفَس صوفي وذلك من خلال المفردات الواردة فيها (حقائق الإيمان – نقطة دائرة الوجود – مدد ينابيع المجد والجود – قبلة أسرار الملك والملكوت – المحمود في حضرات العرفان ..) عبارات وألفاظ تمتح من المعجم الصوفي المشبع بالتأمل والتسبيح في ملكوت الباري ويحيل على الرقي النفسي والتجلي الروحي.

يذكر المؤلف اسمه مقرونا بصفات الانكسار والذل أمام الله، يقول العياشي "العبد الفقير الذليل الحقير المستجير بالله ورسوله، الملتجي إلى كرم الله في حصول أمله من الخير وسوله، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي."[19]

يطلب العياشي من الله تعالى الهداية والتوفيق ثم يشرع في سرد حيثيات سفره الأول، وما عاناه من شوق لحج بيت الله الحرام، فكان يتطلع لصحبة الحجاج مع ما ينتابه من حنين، فكان يروح عن نفسه بمدح الرسول (ص)، فبقي على حاله متراوحا بين الشوق والحنين إلى أن أذن مؤذن الحج، فخرج مع الركب في شهر ربيع النبوي سنة 1059هـ فكانت رحلته الأولى، لم يدون العياشي رحلته الأولى لأنها لم تحتو كثيرا يعتنى بكتابته.

عاد العياشي من رحلته الأولى وهو يظن أنها قد شفت غليله وروت عطشه، لكن بدا الأمر على خلاف المظنون، فلا يصل وقت الركب إلا سالت دموعه وحن حنينه لزيارة البقاع المقدسة، فراوغ نفسه مدة ثم عزم الرحيل فجمع عدته وتوجه للحج آواخر ربيع النبوي سنة 1064هـ وهب رحلته الثانية للحج، وفيها لقي الرجال والإخوان والأدباء والظرفاء، فجمع كل ما دار في هذه الرحلة من مذاكرات وأسماء المشايخ ومروياتهم ومصنفاتهم في كتابه "اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر".

عاود العياشي همُ السفر والحج فهمَ بالرجوع للحجاز، يقول "وهممت العزم على الرجوع، وجعلته أكبر همي في اليقظة والهجوع .. ورجوت حصول السعي المشكور وذلك في سنة تسع وستين فدبت في مغربنا عقارب الفتن."[20] فلم يتمكن من الحج في هذا العام 1069هـ نظرا للفتن وانقطاع السبل، فأصابه من ذلك هم شديد وغم كبير، فعاد للمدائح النبوية يبث فيها حنينه ولهيب قلبه، فلما كانت سنة 1072هـ اشتد عزمه على السفر لكن الفتن تتفاقم والجوع عم البلاد، فجاء أمر السلطان بمنع الحج "فلأجل ذلك أشار بترك السفر من لا تعصى له إشارة ونهى عنه من له على أكبر حق بصريح العبارة فآيست إذ ذاك منه بعد العزم القوي."[21]

أصيب العياشي بهم وغم جراء منع الحج والسفر، فالتجأ إلى مدح خير الورى ليفرج عن كربته، ونظم إذ ذاك قصائد في مدح المصطفى (ص) رتبها على حروف المعجم، وذكر فيها شوقه وحنينه، واشتكى وبكى مما لحقه من منع، لكن نسائم الفرج هبت وبشائر الخير هلت، فعقد العزم على الخروج والسفر، فكانت رحلته الثالثة سنة 1072هـ وهي التي دون أحداثها في رحلته المسماة ماء الموائد.

ظهر أمر الخروج فبدأ الاستعداد للسفر، فيسر الله له حوائج في أقرب مدة و لم يبق من الشهر إلا نصفه والعياشي راغب في لحاق ركب سجلماسة، فكتب العياشي كتابا لأمير الركب محمد بن محمد الحفيان ليخبره بقدومه عليه، كما كتب لأحمد الخطيب قاضي مراكش يستبطئه الخروج، وكان الحجاج بسجلماسة قد شق عليهم الانتظار، فبذل الحفيان والخطيب جهدهما لتأخير الركب.

يصف العياشي لحظات الفراق، فالأهل والأحباب متعلقون بالحجاج يرجونهم عدم الخروج، بل كاتبوا الشيخ عبد القادر الفاسي يستنجدون به لتنيهم عن عزمهم، حتى إن البعض عاب عليهم الخروج فوصفهم بالفارين من الفتن.

يشرع العياشي في وصف رحلته، فكان أول ما وصفه هو يوم الخروج، فبعد أن استعد ركب سجلماسة للانطلاق، خرج خرج العياشي على عجل صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الآخر متيمنين بقول النبي (ص) "اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس."[22] وكانوا قد خرجوا قبل ذلك اليوم إلى خارج البلد وأخرجوا معهم الأمتعة والدواب، وبعد صلاة الصبح ليوم الخميس زار العياشي قبر والده، ثم ودع الأهل والعم والوالدة، وجعل آخر عهده بالمسجد. يصف العياشي منظر الفراق وقد مُدت الأيدي للآفاق تدعو بالتوفيق للرفاق والدموع تسيل جارية والقلوب خاشعة، وأنشد في ذلك شعرا.

ينطلق ركب الحجيج الذي يضم العياشي محاولا الوصول لركب سجلماسة، وذلك في مسار طويل وشاق، مفعم بالشوق لزيارة خير البقاع، ركب يجمع الرجال والنساء العلماء وعامة القوم، وسار الحجيج يومهم الأول إلى العصر، و لم يصلوا ركب سجلماسة بعد، وفي طريقهم ألم بأخ العياشي مرض فعاد أدراجه.

يورد العياشي في نص الرحلة –بين الفينة والأخرى– لطائف وغرائب تستوقفه في المسير أو تخطر بباله فلا يفوت فرصة تدوينها وتسجيلها، ومن لطائف مقدمة الرحلة، تسجيل العياشي لفوائد قول القائل –حسبي الله ونعم الوكيل– أو ما يسمى

نحتا الحسبلة، وقد داوم على قولها بعد فراق أخيه، فظهرت له بهذه المداولة أسارا الله في خلقه، قال العياشي "مما ألهمته عند ذلك التألم الرجلوع إلى الله، والاستغناء به عمن سواه، وأكثرت من قول حسبنا الله ونعم الوكيل، وجعلته وردي ذلك اليوم، فظهر سر الله وبركته."[23]

يتابع أبو سالم العياشي سرده لوقائع الرحلة، واصفا شارحا، فبعد الخروج من الديار نزل الركب بقصر بني عمار فباتوا ليلتهم هناك، فلقي العياشي الفقيه محمد بن محمد السوسي، فأكرم الوفد وأحسن، ثم تابعوا مسيرهم حتى نزلوا بمدغرة حيث قبر العالم عبد الله بن علي بن الطاهر الحسني، فباتوا عند ابنه محمد، فأحسن ضيافتهم وأجاد وفادتهم، وعقد معه العياشي عقد أخوة.

يتابع الركب سيره في طريقته نحو سجلماسة لينضم للركب الرسمي، وفي طريقهم زاروا وادي الرتب فنزلوا عند محمد بن جعفر، ثم ساروا حتى وصلوا زاوية أحمد بن عبد الصادق. وأكملوا طريقهم فدخلوا سجلماسة عشية ذلك اليوم، فوجدوا الركب قد خرج منذ أيام إلى خارج المدينة، فلم يقم العياشي بسجلماسة غير يومين لجمع الأغراض وزيارة العلماء والصلحاء.

انطلق العياشي إلى خارج مدينة سجلماسة فوجد الركب قد ارتحل و لم يبق منه أحد فلولا أن أمير الركب خلّف في منتصف الطريق من يدلهم على الركب ما أدركوه. و لم يدركوه إلا بعد العشاء عند عين عباس وذلك في اليوم السبت 10 ربيع الآخر، يقول العياشي "ثم ارتحلنا من هناك مسرعين وإلى الله داعين البين مهطعين، و لم يبق لنا التفات إلى من وراءنا، و لم نشغل بغير ما نحن فيه إزاءنا، واستقبلنا أراضي واسعة، ومناهل عن العمران شاسعة، لم يهم المرء فيها إلا بنفسه، ولا يكون بغير راحلتها أو عصاه أنسه، أرض لا يشعب في شعابها إلا خوافق الرياح، ولا يجتري على قطعها إلا ذو حف أو جناح، ثم نزلنا ذلك اليوم منهلا يسمى الرفاعية.."[24]

هكذا تنطلق رحلة العياشي منطلقا من سجلماسة نحو أرض الطهر والعبادة، ليصف الكاتب ما رآه من مشاهد وما قطعه من مفاوز.

انطلاقا من الخطاب المقدماتي في رحلة ماء الموائد للعياشي، يتبين أن الرحلة الحجازية نص وصفي سردي يحتل الحج وزيارة البقاع حيزا كبيرا في أحداثها ومشاهدها، فيصف الكاتب الطريق من سجلماسة إلى الحجاز، ويسرد أحداثا ومشاهد

عايشها وعاينها، كما أن الرحلة تضم أشعارا وأحاديث، لطائف وغرائب وغيرها كثير. فالرحلة الحجازية مسيرة حياتية ورغبة شعورية تعبر عن علائق روحية ووجدانية تشد المسلمين عموما والمغاربة خصوصا إلى زيارة ومجاورة في بلاد الحرمين.

الهوامش

[1] تقديم تحقيق الرحلة العياشية ص 12

[2] جماعة من الحجاج يقصدون البيت الحرام جماعة يتبعون طريقا معينا

[3] دفين مدينة اسفي ومزاره معروف هناك

[4] ركب الحاج المغربي لمحمد المنوني مطبعة المخزن تطوان 1953، ص 7

[5] ركب الحاج المغربي ص 9

[6] ركب الحاج المغربي ص 15

[7] ركب الحاج المغربي ص 11

[8] ركب الحاج المغربي ص 37

[9] ركب الحاج المغربي ص 40

[10] ركب الحاج المغربي ص 33

[11] رحلة أبي سالم العياشي لأداء مناسك الحج 1661-1663م

[12] الرحلة العياشية طبعة حجرية ص 17

[13] بمرض الطاعون

[14] فهارس علماء المغرب لعبد الله المرابط الترغي سلسلة الأطروحات جامعة عبد المالك السعدي ص1 سنة 1999

[15] التقاط الدرر – نشر المثاني – تاج العروس – فهرس الفهارس – شجرة النور الزكية – الفكر السامي ..

[16] الرحلة العياشية تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع ص1 سنة 2006

[17] طبعت طبعة حجرية في جزأين سنة 1898موأعيد طبعها في الرباط سنة 1977م

[18] الرحلة العياشية لأبي سالم العياشي ص 2

[19] الرحلة العياشية ص 3

[20] الرحلة لاعياشية ص 5

[21] الرحلة العياشية ص 5

[22] الرحلة العياشية

[23] الرحلة العياشية تحقيق الفاضلي ص 69

[24] الرحلة العياشية ص 76